۷۲-سورة الجن

وزارة المعارف العمومية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع والعشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

علي محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

جميع الحقوق محفوظة للوزارة

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦هـ - ١٩٤٧ م

قام برفعه راجي عفو الله .. أحمد رفعت بن عبد الغفار الكشميري .. مصر (٢٠١٥م)

سورة الجنّ مكية

وهي ثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ

[أوحى] الإيحاء في اللغة أن تلقى إلى غيرك ما تريد أن تعلمه إياه بواسطة الإيماء أو الإشارة أو الرسالة أو الكتابة ، ثم غلب استعماله فيما يلقى إلى الأنبياء من عند الله . وفي الوحي معنى الإخفاء والسرعة ، فما يلقى وحيا يكون خفيا سريعا . و[استمع] تكلفَ أن يسمع وأصغى أذنه ليسمع ، و[نفر من الجن] — رهط منهم ما بين الثلاثة إلى العشرة .

ونبينا صلى الله عليه وسلم لما أصغى إليه هؤلاء النفر واستمعوا تلاوته للقرآن لم يكن عالما بهم ، ولا شاعرا بمكانهم ، ومن ثم قال له ربه : ﴿ قل أوحى إلى ﴾ أي قل يا محمد لقومك إن الله أوحى إليك ﴿أنه استمع نفر من الجن﴾ وأصغوا إلى قراءتك .

وكان من خبر ذلك كما في الترمذي وغيره أنه صلى الله عليه وسلم انطلق في نفر من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، حتى إذا كانوا بوادي نخلة (موضع على ليلتين من مكة وعلى ليلة من عكاظ) — نزل رسول الله فصلى بأصحابه الصبح ، فمر بهم أولئك النفر من الجِنّة ، وسمعوا رسول الله يقرأ القرآن، فاستمعوا إليه مصغين متدبرين ، فآمنوا به ، ورجعوا إلى قومهم منذرين . وكان أولئك النفر فيما روى عن ابن عباس رضي الله عنه من جنّ نصيبين ، وهي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى بلاد الشام . وقال ابن عباس أيضا إنه صلى الله عليه وسلم ما قرأ على أولئك النفر من الجنّ، ولا رآهم يومئذ، ولا علم بمكانهم حتى أوحى الله اليه بأمرهم في هذه السورة ما أوحى .

فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ﴿١﴾

وقد قص الله علينا خبرهم أيضا فى سورة الأحقاف مذ قال تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه . يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم) إلى آخر الآيات . وفيها حض لقومهم على الإيمان بالقرآن كما آمنوا بالتوراة التى أنزلت على موسى من قبل ، وأنهم إن لم يجيبوا داعى الله لا يعجز ربهم عن أخذهم بالنكال والعذاب .

وقوله فى سورتنا هذه : ﴿ فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا الخ ﴾ معناه أنهم بعد أن استمعوا القرآن وتدبروه رجعوا إلى قومهم فقالوا لهم (إنا سمعنا قرآنا عجبا) ، أى موضعا للغرابة والدهشة من جهة مباينته لأمثاله ونظائره من الكتب ، فى حسن نظمه ، وبلاغة أسلوبه ، وما حواه من بديع الحكم ، وبالغ العظات والعبر .

فخبر هؤلاء النفر من الجن فى السورتين متوافق متوارد على شىء واحد ، وهو استماعهم للقرآن ، فإعجابهم به ، فإيمانهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فرجوعهم إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان والتصديق .

ويفهم من قول هؤلاء النفر: (تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) أنهم كانوا على دين النصرانية ؛ لأن الإسلام وهو يحاج النصرانية كثيرا ما يستند فى محاجتها على نفى الصاحبة والولد.

وقد كبر على عقول بعض أبناء هذا العصر الضعيفى الثقة بأمر الغيب وعالم الروحانيات أن يفهموا خبر هؤلاء النفر — من الجن الذين استمعوا إليه صلى الله عليه وسلم فآمنوا به — إلا على ضرب من التأويل — فقالوا : إن أولئك النفر طائفة من نصارى نصيبين ، وفدوا عليه صلى الله عليه وسلم كما وفد عليه نصارى نجران ، وأنهم جاءوه مجتنين مستخفين متنكرين لبعض الأسباب ، فلم يحبوا أن يعلن أمرهم أو يراهم أحد من الناس ، وبذلك أمكنهم أن يسمعوا قرآنه ويعقلوا دعوته . أو هم نفر من التجار والأفاقين : قصدوا سوق عكاظ وشهود موسمه ، فمروا به صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ، فأصغوا إليه يتلو القرآن من حيث لا يشعر بهم ، فلما رجعوا إلى بلدهم

أخبروا قومهم بخبره ، وعجيب أمره ، ومعجز قرآنه ، فسماهم الوحى السماوى جنا لهذا السبب ، كما سميت الإبل فى الحديث جنا . أخرج الإمام الشافعى فى مسنده " إذا أدركتم الصلاة فى أعطان الإبل فاخرجوا منها فصلوا ، فإنها جن خلقت من جن ، ألا ترونها إذا نفرت كيف تشمخ بأنفها". وفى رواية أحمد بن حنبل " ألا ترون إلى عيونها وهيأتها إذا نفرت " انتهى .

هذا ما قاله أولئك المعاصرون ، وهو ضيق عطن منهم ، وإلا فإن وجود قوى روحانية ، وعوالم غيبية ، استترت عن حواسنا بأعيانها ، وتجلت لنفوسنا بآثارها ، وما تواتر من أخبارها — أمر محقق لاريب فيه . ولنضرب لها مثلا القوات الطبيعية التى كانت مجهولة للبشر منذ أقدم أزمنة التاريخ ، كالكهربائية التى لو قص قاص ما سيكون من أمرها وغريب أعمالها ، على البشر وهم فى طور سذاجتهم — لعدّوه كذبا حِبريتا [1] . وما نعرفه اليوم من خواص الكهربائية قليل بالنسبة إلى ما ينتظر أن يعرف منها فى المستقبل ، وما يدرينا أن يخلف الكهربائية قوةٌ أو قوات أخرى أغرب منها وأعجب . وهذا (الراديوم[2]) على الأبواب ، بل قال " إسحق نيوتن" أكبر فلاسفة الإنجليز : إن البشر اليوم بالنسبة إلى ما اكتشفوه من أسرار الكائنات كأطفال على ساحل الأوقيانوس ظفروا بودعات براقة ، وشظايا أصداف ملونة لماعة ، فشغلوا بها وحسبوها كل ما عند ذلك الأوقيانوس العظيم ، وما فى أعماقه من الطرف المونقة ، والأعلاق النفيسة ، والكنوز الثمينة .

وإذا كنا لا نصدق إلا بما نشعر به بحواسنا فهذه أرواحنا التى فى أبداننا لا نراها ولا نسمعها ولا نشمها ولا نذوقها ولا نلمسها ، ولكننا نؤمن بوجودها ، ونعترف بعالمها ، فما عدا مما بدا ؟

وبعد فإن عالم الجن كعالم الملائكة من المغيبات التى أمرنا بالإيمان بها ، ولم نكلف رحمة بنا أن نروى من أخبارها وأطوارها أكثر مما ذكره الوحى لنا ، فلنعقل منه ما نعقل ، ولنكل أمر ما لا نعقل إلى الله ؛ فهو سبحانه وتعالى القادر على أن يعرفنا فى مستقبل الزمان من أمره ، ويكشف لنا من مكنون سره ، ما يكون عقدة اتصال بين العلم الصحيح ، والوحى الصريح .

---

(١) (كذبٌ حبريت) خالص مجرد لا يستره شىء . ويقال أيضا : كذب بِحْرِيت .

(٢) الراديوم عنصر مكتشف حديثا ذُخرت فيه قوة إشعاعيــة هائلة تفوق قوة الكهرباء أضعافا مضاعفة بحيث يتوقع من وراء اكتشافها والانتفاع بها أعظم الأثر فى مصالح البشر وقوانين حياتهم .

يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾

ومعنى كون القرآن ﴿ يهدى إلى الرشد ﴾ — أنه يدل على الحق والصواب ، و يوصل إليهما . وقوله ﴿ ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ معناه أنهم قالوا لقومهم إننا آمنا بالقرآن ، وعملنا بأمره وتعليمه ، فلن نجعل من بعد اليوم شريكا لله من خلقه .

وهمزات (إنه) فى قوله ﴿ وإنه تعالى جدّ ربنا ﴾ (وإنه كان يقول) (وإنا ظننا) إلى آخرها وهى بضع عشرة همزة — كلها مكسورة عطفا على (إنا سمعنا قرآنا عجبا) وهمزة (إنا) هذه مكسورة لوقوعها بعد القول : فالمعنى إن أولئك النفر من الجن رجعوا إلى عشيرتهم وأبلغوهم جميع هذه الأخبار معطوفا بعضها على بعض ، وقد أُكدت كلها بكلمة (إن) التى هى أم المؤكدات . ومن القراء من فتح هذه الهمزات كلها عطفا على ضمير (به) ، فيصبح المعنى : إنا آمنا بالقرآن ، وآمنا بأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ، وآمنا بكذا و بكذا إلى آخر الآيات ، غير أن بعضها لا يصلح معه تقدير فعل — آمنا — فيقدر له فعل آخر يناسبه من نحو — صدقنا — و — علمنا — و — عرفنا — و — اعترفنا — و ألهمنا — و — شهدنا — على حد ما قالوه فى قول الشاعر : " وزججن الحواجب والعيونا " أى وكحلن العيونا ، وقوله " علفتها تبنا وماء باردا " أى وسقيتها ماء باردا .

ومعنى (جد ربنا) عظمته وسلطانه ، أى أن العظمة والجلال الإلهى يأبى ويتنزه عن أن يتخذ لنفسه صاحبة وولدا ، إذ أن مقام الألوهية ينافى هذا الاتخاذ الذى هو أثر من آثار العجز أو الانقسام والتجزؤ .

يقول العرب : فلان جَدَّ فى عين الناس ، يعنون عظم أمره فى صدورهم ، ومنه حديث أنس رضى الله عنه : " كان الرجل منا إذا حفظ سورتى البقرة وآل عمران جد فى أعيننا " ، أى عظم وأصبح له مقام ، لما وفق إليه من حفظ هاتين السورتين الطويلتين .

وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾

أخذ هؤلاء النفر من الجن يصفون لقومهم ما كان من تأثير الكلام الإلهى فى نفوسهم ، وكيف صحح من عقائدهم ، وغيّر من أوهامهم ، وسردوا على مسامع إخوانهم حقائق استفادوها من جديد ، وقد كانوا عنها عمين ، فذكروا أولا أنهم أقروا بتوحيد الله ، ثم قالوا : إن السفيه منهم — أى سفيهٍ كان ، أو المراد به سفيههم الكبير الذى هو زعيمهم وولى أمرهم — كان يقول على الله قولا شططا ، تخطى فيه حد العدل والحق . و الشطط : عدم الوقوف فى الأمور عند حدّ الاعتدال . والسفه : خفة وطيش فى المرء تنشأ عن خرق وجهل . فهم يقولون : إن ذوى الرياسة الدينية فيهم كانوا ينسبون إلى الله ما لا يليق بجانب قدسيته ، ويصفونه بصفات ينكرها العقل ، ولا يحملهم على ذلك إلا جهلهم وخفة حلومهم ، وكان أولئك النفر من الجن وسائر العامة يصدقون أولئك الرؤساء ، ويعتقدون فى الإله سبحانه ما يلقنونهم إياه من الأضاليل ، مسوقين إلى التصديق بسائق التقليد والاستهواء ، أو بسائق الخوف من أولئك الرؤساء . أما وقد سمعوا القرآن ، واستناروا بنور هدايته ، فما عادوا يُصغون إلى ما يقوله رؤساؤهم ولا ينخدعون به .

ثم إنهم اعترفوا أيضا بشيء من غرارتهم وسذاجتهم هم أنفسهم مذ كانوا يظنون أنه لا يوجد أحد فى البشر إنسا كان أو جنا يكذب على الله ويأثُرعنه من القول ما لم يقله سبحانه . فهؤلاء النفر اعترفوا بأنهم كانوا يصدقون وينخدعون بما يقوله الكذابون على الله من الوحى الملفق ، والحديث المزوّق ، ظانين صدق القائل ، ومستبعدين صدور الكذب منه . وهذا معنى قولهم : ﴿ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا ﴾ . أما الآن — وقد سمعوا القرآن ، وأشربت قلوبهم حلاوة الإيمان — فقد عرفوا أنه يوجد فى الإنس والجن كذبة ملبِّسون ، يجب تحاميهم ، ونبذ دعاويهم ، والاستعاذة بالله من مخازيهم .

وإن لنا معشر الانس مغزى وعبرة من أقوال هؤلاء النفر من الجن : أن ننتبه كما انتبهوا إلى أنه قام فينا نحن أيضا ملبّسون ، يكلفوننا أن نصدق بكل منقول ، ولو كان مما يناقض العقول ، ويخالف ما قرره الإسلام من القواعد والأصول . فلا ينبغى إذن أن يكون أولئك النفر من إخواننا الجن أهدى منا إلى صحيح الإيمان ، ولا أشد تمسكا بآداب القرآن :

قم فقد قامت الطيور تغنى لايكون الحمام أطرب منا

وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ

ومما قاله أولئك النفر لقومهم أمر بالغ فى الغرابة يتعلق بأوهام الإنس فى الجن . ذلك أن أناسا منا معشر البشر كانوا يعتقدون سلطة الجن ، وعظيم صولتهم عليهم ، فهم يعوذون بهم ، ويلجئون إليهم مستعطفين ضارعين ألا يؤذوهم ؛ فكان الرهط من عرب الجاهلية إذا أمسوا فى وادٍ أو قفر وخافوا من الجن — لجئوا إلى الاستعاذة بعظيم الجن المسوَّد فيهم ؛ فيقولون : "نعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاءِ قومه"، ثم يبيتون آمنين . وكانوا إذا أصيبوا بمرضٍ أو آفة علقوا على أجسامهم تمائم وتعاويذ يزعمون أنها تقيهم أذى الجن ، وكثيرا ما يلطخون تلك التعاويذ بالنجاسة ليبتعد الجن من حاملها ، ويسمون التعويذة إذ ذاك تنجيسا ، ويجمعونها على تناجيس . ويعلقون على أنفسهم أحيانا ودعا وعظاما . وقد أدرك بعض عقلائهم قبح هذا وسخافته كامرئ القيس الذى يوصى زوجته ألا تتزوج — إذا مات وأرادت أن تتزوج — أحمق معتوها من نمط من ذكرنا فيقول :

أيا هند لا تنكحى بُوهَةً … عليه عقيقتُه أحسبا[1]
مرسَّعةً بين أرساغه … به عَسَمٌ[2] يبتغى أرنبا
ليجعل فى رجله كعبها … حذار المنية أن يعطبا

يقول : لا تنكحى أحمق ما زال شعر رأسه محمرا من آثار العقيقة الباقية فيه — والعقيقة : اسم للشعر الذى يولد به المولود — وإن فى رسغ ذلك الأحمق فسادا واعوجاجا ؛ فهو قد شد عليه سيرا للاستشفا مما عراه ، وهو فوق ذلك يتجوّل فى البرية ليصطاد أرنبا فيجعل كعبها فى رجله فلا يموت بتعرض الجن له .

وقوله ﴿من الجن﴾ متعلق بمحذوف صفة لرجال أى إن رجال الإنس يستجيرون برجال صفتهم أنهم من الجن كما قلنا آنفا إن أهل الجاهلية كانوا يستجيرون برجال الجن الذين لهم سيادة فيهم .

(١) البُوهَة : الرجل الضاوى ، والطائش ، والأحمق . والعقيقة خرزة كانوا يزعمون أن من تختم بها سكنت روعته عند الخصام . والأحسَب : الأبرص ، ورجل فى شعر رأسه شقرة ، ومن ابيضت جلدته من داء ففسدت شَعرته فصار أبيض وأحمر . القاموس . المصحح .

(٢) رَسَعَ الصبيُّ كمنع شد فى يده أو رجله خرزا لدفع العين ، ورَسِع كفرح فهو أرسع ، ورسّع ترسيعا فهو مرسِّع ، ومرسَّعة أيضا : فسدت أجفانه . والعَسَم : يُبْس فى مفصل الرسغ تعوج منه اليد أو القدم . القاموس .
"به عَسَمٌ" جملة اسمية ، و"بين أرساغه" حال مقدمة . المصحح .

فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾

وقال بعض المفسرين: إن قوله تعالى (من الجن) ليس صفة لرجال ، و إنما هو متعلق بفعل (يعوذون) فالمعنى أن رجال الإنس يستجيرون من أذى الجن برجال . وهؤلاء الرجال المستجار بهم هم من الإنس كالكهان والمنجمين والعرافين وسائر مستطلعي الغيب . فخطباء الجن يقولون لقومهم : إن رجالا من الإنس ضعاف العقول يعوذون عند حلول المصائب والشدائد برجال من بني جنسهم الإنس ، مستجيرين بهم أن يدفعوا عنهم أذى الجن وغائلة الشياطين بما أوتوا من تجليات الأنوار ، وما استبطنوا من مستودعات الأسرار . و إن هؤلاء الرجال من الإنس الذين استجير بهم يرونها فرصة سانحة لاستغلال أولئك الحمقى المستجيرين بهم ، واستنفاض ما فى جيوبهم ؛ فلا ينهونهم ، ولا يبينون لهم جهلهم ، بل يزيدون فى إيهامهم وتحذيرهم و إدخال الرعب فى قلوبهم منا معشر الجن والشياطين ، ثم يأخذون فى مداواتهم ودفع أذانا عنهم بالطلاسم والأكاذيب ، ومختلف الأساليب . و إن هؤلاء الرجالَ المخرقين ، لهمُ الجنُّ المؤذون ، لو كان المخدوعون بهم يعلمون .

فهذه كانت حال العرب قبل الإسلام ، وهذا ما نبههم إليه القرآن ، وحذرهم منه على لسان إخوانهم من مؤمني الجنة .

وجد الإسلام العرب على عقيدة فى الجن وأوهام من أمرهم نزلت بهم إلى حضيض البهيمية ، فأعلن أمر الجن بلسان الجن ، وقرر أن استجارة الإنس من أذاهم وهم وغى وضلال ، ثم نبه إلى أن رجال الإنس المستعاذ بهم كالكهنة والعرافين والمنجمين يزيدون أولئك المستعيذين المساكين ﴿ رهقا ﴾ وعنتا ، ويدخلون على قلوبهم من الرعب والخوف منهم مالا يطيقونه — كل ذلك ليمتصوا ثروتهم ، ويستثمروا بلاهتهم ، كما تستثمر البقرة الحلوب . وهذا معنى (رهقا) فهو اسم مصدر لأرهقه إرهاقا بمعنى أعنته وكلفه فوق طاقته . ولا جرم أن ضعفاء العقول يتحملون من عبء هذه الأوهام والشعوذات فوق ما تطيقه نفوسهم ، وتقوى عليه ملكاتهم ، فيعيشون فى الوسوسة والخبل والتعاسة إلى ما شاء الله .

وهكذا ضيق القرآن الكريم دائرة الاعتقاد فى الجن ، ورد البشر فى أمرهم إلى حد محدود . فكم نجنى على أنفسنا بل على القرآن نفسه إذا كنا نعتقد فى الجن والشياطين اليوم ما لا يعرفه عرب الجاهلية أنفسهم مما لو سمعوه عنا لضحكوا عجبا ، وأمعنوا منا هربا .

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ
فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ
لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾

ثم قال خطباء الجن لقومهم : إن غفلة الإنس كغفلتكم أنتم يا معشر إخواننا الجن ؛ فهم يظنون كما تظنون أن الله يترك كلا الفريقين — الإنس والجن — من رحمته، فلا يبعث إليهم رسولا يزيح عن أعينهم غشاوات الأوهام ، ويميط عن قلوبهم رَيْن الأضاليل ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم . وكأنهم يقولون إن ظن الفريقين فيما ذهبوا إليه كاذب ، فهذا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد أرسله الله رحمة للإنس والجن، وأنزل عليه القرآن الذى سمعنا آياته ، ودامغ بيناته ، فوجدناه لا يتفق مع ما نحن عليه جميعا من العقائد والأوهام ، فأمطناها عن قلوبنا ، وطهرنا من لوثها نفوسنا .

[لمسنا] يراد من اللمس الطلب وإن كان أصله المس باليد. وكثيرا ما نقول نحن اليوم نلتمس كذا أى نطلبه . ولى عندك التماس أى طلب . وهذا كالجس ، فإن أصله تعرف الشيء باليد ، ثم استعملوه فى طلب الخبر وتعرفه ، ومنه التجسس والجاسوس . فقولهم ﴿ لمسنا السماء ﴾ يريدون به طلبنا أخبارها ، وحاولنا أن نتعرف أسرارها . و[الحرس] فى الأصل جمع حارس ، وهو حافظ الشيء . ثم استعمل استعمال المفرد ، وأصبح اسما للجماعة الذين يحرسون السلطان . ولذا لايقال فى واحده حارس ، بل حرسى ، أى منسوب إلى الحرس . ولو اعتبر جمعا ما صحت النسبة إليه ، لأن الأصل فى الجموع ألا ينسب إليها ، ودليل آخر وصفه فى هذه الآية بالمفرد وهو ﴿ شديدا ﴾ ولو اعتبر جمعا لقيل فى وصفه شدادا . و[شهبا] جمع شهاب : الشعلة الساطعة من النار ، وهو أيضا اسم لما يرى فى سماء الليلة المصحية كأنه كوكب منقض ، وقوله ﴿ وإنا كنا نقعد الخ ﴾ يريد به إنا كنا من قبل نقعد من السماء مقاعد لأجل أن نتسمع أخبارها أى مقاعد قليلة ذات صفة خاصة بحيث يتيسر لنا منها استراق السمع ، ولذلك نكر ﴿ مقاعد ﴾ . وقوله ﴿ يجد له ﴾ أى يجد معدّا له ومهيئا فى طريقه . ويقال فى (رصدا) ما قيل فى (حرسا) من أن أصله جمع راصد ثم استعمل استعمال المفرد، ومن ثم وصف به المفرد فقيل ﴿ شهابا رصدا ﴾ ولم يقل (شُهُبا رصدا) أى أن ذلك الشهاب مهيأ فى طريق ذلك الشيطان المستمع يرقبه لينقض عليه.

وهـذه مسألة ثانية من المسائل ذات البال التى قررها القرآن بلسان أولئك النفر من الجن تصحيحا لعقائدنا بشأن جنس الجن ومبلغ سـطوتهم على الإنس ؛ فلا نذهب فى الأوهام فيهم والمخاوف منهم كل مذهب ، قال أولئك النفر فى الآيات السابقة إنهم استفادوا من سماع تلاوة القرآن أن الجن ليس من مقدورهم أن يؤذوا الإنس؛ فليطمئن هؤلاء بالا من هذا القبيل، ويقول الجن فى هذه الآيات : إنهم يريدون — بالصعود إلى السماء - أن يعرفوا الغيب ، ويسترقوا خبر ما قدره الله وأراده فى البشر ، لـكنهم يطردون منها طردا ، ولا يوفقون إلى ذلك ، وأنهم كانوا قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم يظفرون بحاجتهم أحيانا ، فيلتقطون من السماء أخبارا ، أما اليوم وقد بعث صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن وتقررت فيه الحقائق فلم يعد للجنّ نصيب من ذلك ، يعنى أن الجنّ والشياطين كانـ لهم قبل الاسلام صولة ودولة ، أمّا بعده فقد سلبوا ما كان لهم من هذا القبيل .

والسماء فى عرف جميع الأديان المنزلة ساحة الملكوت الربانى ، ومَجْلَى السر الروحانى ، وفيها عرش السلطان الإلهى ، ولوح التقديرات الأزلية المتعلقة بعالم الدنيا . وهى مسكن الملائكة : منها يهبطون ، وإليهـا يَعْرُجون ، ومن ثم كانت قبلة الدعاء ، ومنتهى الرجاء ، وكان الكهان والمخرقون ودهاة البشر الذين يريدون التلعب بضعاف العقول واستغلال بلاهتهم — يستخدمون الجنّ فى تعرف خبر السماء ، والوقوف على ما قضاه الله وقدّره فيها ، وكثيرا ما ادّعوا أن هؤلاء الجنّ يعلمون الغيب ، وأنهم يأتون به الكهان غضا طريا فيخبرون به الناس .

فأنت ترى أن حبائل الكهان فى الغواية والإضلال ، ومزالق البشر إلى الوهم والوسواس والخبال — كانت منحصرة تقريبا فى الجنّ : من جهة الظن فيهم أنهم مسلطون مؤذون ، ومن جهة الوهم فيهم أنهم يعلمون غيب السماء ، وما خبأته العناية الإلهية للبشر فيها ، وكانت هـذه الأضاليل كثيرة الرواج ، شديدة الوطأة على عقول البشر فى تاريخهم القديم حتى قبيل البعثة المحمدية ، فوضع القرآن والإسلام حدا لهذه المسألة ، وقرر بلسان الجنّ أنفسهم (أولا) أن الجنّ لا يؤذون الأذى الذى يخافه ضعاف العقول . و (ثانيا) أنهم لا يعلمون الغيب ، وأن الغيوب بشأن البشر فى لوح محفوظ فى السماء بعيد عن أن يصل إليه أولئك الجنّ الذين أعِدّ لهم فى طريقهم حفظة أشدّاء وشهب رواصد تمنعهم وتدفع فى صدورهم .

ومغزى آيتنا هذه فى إزالة الأوهام بشأن الجنّ ومعرفتهم الغيب هو نفس المغزى فى آية سبأ : (فلما خر تبينت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) ؛ فكل من الآيتين

وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾

أثبتت جهل الجن ثم جهل الكهنة والعرّافين بأمر الغيب وما قدّره الله فى خلقه . كما أثبت القرآن أن الغيب لله وحده (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) ؛ فقد حجبه عن الخلائق أجمعين ، حتى سيد البشر وخاتم المرسلين : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) نعم لا يعلم صلى الله عليه وسلم من الغيب إلا ما يأتيه به الوحى الصادق .

هذا ما استفاده أولئك النفر من الجنّ مذ سمعوا القرآن ، وهذا ما أعلنوه فى قومهم ، وهذا ما أحبوا أن يعلمه الإنس أيضا مؤكدين خبرهم واعتقادهم بأبلغ أساليب الخطاب العربى المعهودة فى لسان أهله ، ولا سيما افتتاح كل جملة بكلمة (إنّ) التى هى الأصل فى التأكيد .

ثم إنهم أنهوا الحديث عن جهل الجنّ بنتيجة ينبغى أن يعيها كل إنسى وهى قولهم : ﴿ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ ، أى إنا معشر الجنّ الذين تزعمون فينا يامعشر الإنس معرفة الغيب واستراقه من السماء — لاندرى ولا نعلم ما الله فاعل فى سكان الأرض ، وماذا قضاه وقدّره عليهم فى لوح تقديراته : أأراد وقدّر شرا أم أراد وقدّر رشدا : أى هداية وتوفيقا ؛ فلا تظنوا فينا معرفة شىء من ذلك بعد اليوم ، ثم لا تصدقوا الكهان بما يروون لكم عنا . هذا ما قالوه ، لكنه تعالى فى الواقع ونفس الأمر قضى بالشر والشؤم والضلال على بعض من فى الأرض من الأشخاص والأمم ، كما قضى بالخير والرشد وسعد الطالع لبعض الأشخاص ولبعض الأمم .

بقى بحث نحب أن لا يفوتنا ذكره ، وهو أن ظاهر هذه الآيات يفيد أن الجنّ بعد البعثة المحمدية منعوا من استراق خبر السماء بإرسال الشهب عليهم ، ولما أورد على هذا أن الشهب كانت ترى فى السماء قبل البعثة — أجيب بأنها لم تكن من الكثرة إلى هذا الحدّ الذى وقع بعد البعثة بدليل قوله (ملئت) ، وهذا يدل على أن الحادث الجديد هو الملء والكثرة ، وكذلك قوله : (نقعد منها مقاعد) ، أى كنا أولا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب ؛ أمّا اليوم فقد ملئت المقاعد كلها كما صرح به الفخر الرازى . وقد يقال : إن الشهب منذ خلق الله السموات والأرض ، وستبقى إلى ما شاء الله مادامت سننها الإلهية ، ونواميسها الطبيعية قائمة فى هذا الكون ، غير أن القرآن جعل تلك الشهب بعد البعثة المحمدية رمزا وتنبيها للبشر إلى أن الجنّ والشياطين لم يعد لهم بعد محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه وقرآنه ما كان لهم قبل ذلك لدى الأمم القديمة الرائج فيها السحر — من السلطة والنفوذ والتأثير فى عقول البشر بواسطة مخرقة الكهان والسحرة ودعوى الغيب والمزاعم الباطلة .

وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ

فالقرآن يهتف من فوق رءوس الأمم والشعوب بأن العقل البشرى تحرر من هـذه الأوهام بفضل القرآن و بعثة محمد عليه الصلاة والسلام . ولتكن هذه الشهب التى ترونها أيها البشر تنقض فى السماء من وقت إلى آخر علامة لكم على ذلك فهى ترمز لكم وتشير إلى أن الشياطين مطرودون من السماء ، مُحَلَّئُون[1] عن حظائرها برشق نبال تلك الشهب ، فلا تصدّقوا من بعد اليوم دعاوى الكهان والسحرة الذين يكذبون عليكم ، ويتلعبون بعقولكم .

ويشبه هـذا ما جاء فى التوراة من أن الله تعـالى وعد نوحا وولده بألا يكون طوفان آخر مثل الطوفان الذى وقع لهم وأهلك البشر وكل حيوان ماعدا نوحا وأولاده ، وأنه تعـالى جعل قوس قزح فى الغمام علامة على عهده معهم[2] : قال مفسرو التوراة : ولا ينتج عن هـذا أن قوس قزح لم تكن موجودة قبل الطوفان ؛ لأن تكونهـا طبيعى كلمـا وقعت أشعة الشمس على قطرات المطر ، لكنه تعـالى جعل ما كان — علامة لمـا سيكون ، ورمزاً إلى أنه تعـالى لا يسمح من بعد اليوم بحصول طوفان كهذا . ثم ضربوا مثلا لذلك صخرة ملقاة فى أرض منـذ القـديم ، ثم قسمنا الأرض إلى قسيمتين ، وجعلنا تلك الصخرة تحا وعلامة بين القسيمتين ترمز إلى كل فريق أين تنتهى حدود أرضه .

وهكذا القرآن فإنه جعل إرسال الشهب الموجودَ من قبل علامة على إبطال دعوى الشياطين والسحرة معرفة غيوب السماء بقصد إضلال البشر ، كما جعلت التوراة قوس قزح الموجود من قبل علامة على منع حصول طوفان آخر يهلك البشر بعد طوفان نوح عليه السلام .

ثم شرع فى وصف ما كانوا عليه من التفرق والانقسام المؤدّى إلى الضعف والانخزال ، ثم ما صاروا إليه بالإيمان والاتفاق على طريقة واحدة يرجى لهم بواسطتها الخير والإسعاد .

وقوله (الصالحون) صـفة لمحذوف ، أى ﴿إنا منا﴾ القوم ﴿الصالحون﴾ ، وهم الأبرار العاملون بمـا يرضى الله من اتباع أوامره الإلهية ، والتمسك بسننه الحكيمة ، والعكوف على العمل الصالح .

(١) حلأه عن الماء ، طرده .

(٢) وقد ورد مثل هذا فى حديث ابن عبـاس : "أمان لأهل الأرض من الغرق — القوس" وعنى بالقوس قوس قزح . المؤلف .

وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾

وقوله (دون ذلك) هو أيضا صفة لمحذوف، أي ﴿ومنا﴾ قوم ﴿دون ذلك﴾، أي أدنى وأحط في مراتب العمل ومراعاة السنن من أولئك الصالحين . ولم يُعلم أكان هؤلاء الأدنون المنحطون عن أولئك فريقا واحداً ذا رأيٍ واحد وسيرةٍ واحدة ، أم كانوا على خلاف ذلك — حتى قال : ﴿كنا طرائق قددا﴾ ، فأفاد بهذا الاستئناف البياني أنه يتألف من مجموع الفريقين : الصالحين والأدنين — طرائق قدد .

و[طرائق] جمع طريقة مؤنث طريق ، وهما اسم للشارع الذي يُطرق ويُسلك ، ثم غلب استعمال الطريق في معناه الأصلي ، أعني الطريق المحسوس المسلوك ، كما غلب استعمال الطريقة في الطريق المعنوي ، وهو مذهب الإنسان وسيرته التي يترسمها في حياته إلى آرابه ومقاصده .

و[القِدد] جمع قِدة : القطعة ، من قد الشيء إذا قطعه . وطرائق القوم مقدود بعضها عن بعض ، ومقطوع جانب منها عن جانب ، فكل واحدةٍ منحازة عن الأخرى، مقطوعة عنها .

يريدون بهذا القول تذكير قومهم بما كانوا عليه من الفوضى بسبب تفرق أهوائهم ، وتباين مذاهبهم . وقد ساقهم إلى هذا التفرّق الأثَرةُ والطمع وحب الرياسة وجلب المنافع الزائلة . وهذا بالضرورة يؤدّي إلى الشقاءِ وسوءِ الخاتمة . أما التفرّق في الآراء بسائق الاستهداء ، وتلمس السعادة والحصول على نظام كافل للحياة الاجتماعية — فهو تفرق محمود نافع ، تحرص عليه الأمم الموفقة ، وترغب فيه ، وتسعى إليه بواسطة الصحافة والأندية ، وعقد المؤتمرات والجمعيات التي يؤدّي تفرق الآراء فيها إلى معرفة الحقائق والتمسك بها .

فالنفر من الجن الذين خطبوا قومهم ذكّروهم بما كانوا عليه من التفرق الممقوت ، ووعدوا أنفسهم جميعا — بعد أن سمعوا هدى القرآن وآمنوا به — بانتظام أمرهم ، واتحاد طريقتهم ، والتوفيق بين آرائهم ومذاهبهم ؛ فتتجه أبدا إلى الخير ، وتنصرف عن الشر .

وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا
سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾
وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ

ثم قالوا لهم : ﴿وأنا ظننا﴾ أى علمنا واعتقدنا . والظن كثيراً ما يأتى بمعنى العلم . ﴿أن لن نعجز الخ﴾ أى لن نكون فى الأرض جبابرة أقوياء يعجز تعالى عن أخذنا وإنزال قهره بنا . كما لا نقدر على الهرب والتفلت فنفوته ثم يعجز عن اللحاق بنا ، والانتقام منا .

يقولون لقومهم : إننا كنا من قبل نعلم ذلك ونعتقده ، ولكن لم يفدنا ذلك العلم ، ولم ينقذنا من بلاءٍ ما كنا فيه من التفرق المشئوم حتى سمعنا القرآن وآمنا به ، وانتفعنا بهديه .

ثم عادوا إلى ذكر نعمة الإيمان والشكر له تعالى على أن وفقهم إليها . ولا جرم أن فى ذكر النعمة وترديدها على الأفواه عناية بها ، وفى إعلان الحمد والثناء على مسديها استزادة منها . وهذا هو المقصود من قولهم : ﴿وأنا لما سمعنا الخ﴾ .

ومعنى ﴿لا يخاف بخسا﴾ أى انتقاصا من حقه فى الثواب فيعطى أقل مما له .

ومعنى ﴿ولا رهقا﴾ أى لا يخاف ظلما لا يطاق تحمله ، بأن يحرم الأجر والثواب بالمرة ، أو يحمل عليه من سيئات غيره ، وهذا رهق وأى رهق ، لكن المؤمن بربه آمن من ذلك .

وقد سبق التصريح من هؤلاء النفر الذين سمعوا القرآن بأنهم آمنوا به . فقولهم الآن : ﴿وأنا منا المسلمون الخ﴾ يريدون به تحذير قومهم وإيقاظهم ، فأدخلوا أنفسهم فى جملتهم وقالوا لهم إنه سيكون من مجموعنا فريق مسلمون ، وفريق قاسطون . وهذا على حد قوله تعالى : (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ، وهو من أساليب اجتذاب الخصم ، وتلطيف حدّته ، واستلانة عريكته . فهم بهذا الأسلوب يحركون من عاطفة قومهم لطرد شيطان التفرقة والاختلاف من بينهم ، وليكونوا يدا واحدة فى الإيمان ، واتباع تعاليم القرآن . ويشيرون من طرف خفى إلى أنه سيكون منهم جميعا أفراد قاسطون ، أى جائرون وحائدون عن سبيل الهدى والرشد ، وهم ضد المسلمين الذين استسلموا لله ، وساروا فى هذا السبيل ، فكأنهم يقولون ليته لم يكن فينا فريق قاسط ، بل نكون كلنا مسلمين ، إذ شتان ما بين الفريقين : من أسلم ومن قسط .

فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدٗا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴿١٥﴾
وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾

﴿فمن أسلم﴾ واتبع الحق وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم كما فعلنا نحن ﴿فأولئك تحروا رشدا﴾ أى طلبوا الأحرى والأهدى من الطريقين مذ اختاروا لأنفسهم طريق الرشد والحق فاستقاموا عليه. وهو آخذ بهم إن شاء الله إلى الجنة. وهذا — وإن لم يذكره الكتاب كما ذكر العذاب بحطب جهنم فى جانب القاسطين — مفهوم من ذكر موجبه أعنى تحرى الرشد. والله تعالى أعدل من أن يعذب القاسطين ويدع المسلمين من ثوابه.

﴿ وأما القاسطون ﴾ العادلون عن ذلك الطريق ﴿ فكانوا ﴾ بما اختاروه واستمرءوه ﴿ لجهنم حطبا ﴾ وقودا يلقون فيها، ويصلون سعيرها جزاء وفاقا لأعمالهم، وسوء اختيارهم. وليس هذا الكلام من أولئك النفر إلا إيقاظا لقومهم كما قلنا، وحضا لهم على النظر والتدبر فى العواقب، فلا يسلكون إلا طريق النجاة والفوز.

و[القاسط] من قسط إذا جار وحاد عن الحق، ومصدره القسط بفتح القاف. ويكون [قسط] أحيانا بمعنى عدل: يقال قسط الوالى فى حكمه إذا عدل، وهو وإن كان قليل الاستعمال بهذا المعنى فإن مصدره الذى هو القسط بكسر القاف كثير جدا. أما [أقسط] بالهمزة فهو بمعنى عدل، واسم الفاعل منه مقسط أى عادل. ومنه قوله تعالى: (إن الله يحب المقسطين) وكأن همزته للإزالة، فإذا قالوا: "أقسط الوالى فى حكمه" كان معناه أزال القسط بفتح القاف أى الجور والظلم؛ فيكون "أقسط" موافقا لقسط قسطا بكسر القاف بمعنى عدل.

قوله: ﴿وأن لو استقاموا الخ﴾ أكثر المفسرين على أنه ليس من مقول الجن لقومهم، وإنما هو من مقول الله موحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فهو عطف على (أنه استمع نفر من الجن) فى فاتحة السورة. ولعلهم إنما جعلوه كذلك لقوله (أسقيناهم)؛ فالله الموحى يقول: لو استقام أولئك القاسطون على الطريقة المثلى لأسقيناهم ماء غدقا. ولو كان من مقول الجن لقال "لأسقاهم الله ماء غدقا" وهذا القول ظاهر لا غبار عليه. ومع هذا فإنى أرى أن الأليق بالكلام المعجز، والأكثر محافظة على تناسق جمله، والتحام أجزائه — أن يبقى (وأن لو استقاموا الخ) من مقول الجن، ومما حذروا به قومهم، ولا سيما أن بعض المفسرين جعل الآيتين التاليتين: (وأن

المساجد لله الخ) ، (وأنه لما قام عبد الله الخ) — من مقول الجن أيضا ، فكيف يحسن هذا مع جعل (وأن لو استقاموا) من مقول الله لا من مقول الجن ؟ وكيف يحشر حشرا بين أطواء كلامهم وهو غريب عنه[١] ؟

وإذا صح جعلنا له من مقول الجن كان قوله (لأسقيناهم) واردا مورد الحكاية ، وأن الله هو المسقى لا النفر المتكلمون : على معنى أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقاهم ربهم ماء غدقا . لكن المتكلمين عدلوا عن الاسم الظاهر وهو ربهم إلى الضمير وهو (نا) حكاية لما يقوله الرب فى وحيه وخطابه عادة للبشر ، فهو كقولك لمن تريد نهيه عن المعاصى " إنك إذا تبت إلى الله أدخلناك جنة تجرى من تحتها الأنهار "[٢] تريد أنك أيها التائب تكون فى جملة من يدخلون تحت وعد الله لأهل طاعته مذ يقول : أدخلنا و بوأنا وأنزلنا ، وفى الكتاب آيات كثيرة واردة على هـذا الأسلوب ، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة طه : (قال فمن ربكما ياموسى ؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . قال : فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى فى كتاب . لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهـدا . وسلك لكم فيها سبلا . وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى الخ) ، وكان الظاهر أن يقول فأخرج به . ويشبه أن يكون منه قوله تعالى فى سـورة الأنعام : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا و بالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) فقوله (نحن نرزقكم) بضمير المتكلم وارد مورد الحكاية عنه تعالى ، وكان الظاهر أن يقول : " هو يرزقكم " .

وقوله : (لنفتنهم فيه) وارد أيضا مورد الحكاية مع (لأسقيناهم) . ثم رجع الكلام فى قوله بعد ذلك (ومن يعرض عن ذكر ربه الخ) ، (وأن المساجد لله الخ) — إلى أسلوبه الأول ونسقه السابق .

و " الاستقامة على الطريقة " السلوك فيها بصبر وثبات ودوام . والمراد " بالطريقة "

---

(١) ما اختاره المؤلف هنا مبنى على ما ذهب إليه بعض المفسرين : من أن الآيتين التاليتين من مقول الجن ، وليس بلازم ، فعلى قول الجمهور لا تجعلان من مقولهم ، بل يكون الكلام من هنا تقريرا لما ينبغى أن يعرفه الناس ويسيروا عليه بعد أن عرفوا قصة الجن . والكلام على هذا ملتحم الأجزاء ، متناسق الجمل . وعلى الرأى الثانى لا تكون الآية محشورة حشرا كما قال المؤلف ، بل تكون اعتراضا حسن الموقع ، لما فيه من التنبيه إلى سنة الله الداعية إلى الاستقامة على الطريقة المثلى ، وهو المقصود من قصة الجن كلها . المصحح .

(٢) انما يصح هذا التوجيه فى رأيى لو كان المتحدث بمثل هذا الكلام ممن يصح له أن يتحدث عن الله تعالى كما فى الآيتين اللتين استشهد بهما المؤلف بعد . على أن الأبلغ فى العبارة التى ساقها أن يقال : إنك إذا تبت إلى الله أدخلك الله الجنة ... الخ باظهار الاسم الكريم بدل إضماره ، لتوكيد نسبة إدخال الجنة إليه تعالى ، فيكون أدعى إلى المسارعة فى الامتثال . المصحح .

الطريقة الكاملة المرضية عند الله، وهى طريقة أهل دينه وطاعته؛ وسيرتهم التى لايحيدون عنها. والضمير فى (استقاموا) يرجع إلى أولئك الذين لم يسلموا ولم يتحروا رشدا ، بل قسطوا وحادوا عن طريق الرشد والحق .

يقول النفر من الجن لقومهم : قد يكون منا فريق لا يسلمون كما أسلمنا ، ولا يسلكون طريق الحق كما سلكنا ، بل يقسطون ويضلون ، ويكونون حطبا لجهنم ، ولو استقام هؤلاء القاسطون على الطريقة المثلى التى يرضاها لهم ربهم : من العمل بطاعته ، واتباع سنته — لوسّع عليهم الرزق ، وألان لهم العيش ، ولكانوا فى جملة الذين يقول فيهم (أسقيناهم ماء غدقا) .

و[الغدَق] الماء الكثير النافع ، والماء مادة الحياة ، وأصل البركات ، وعلى غزارته وجودته تتوقف صحة الأجسام ، ورفاغة العيش ، وطيب الإقامة ، ولم تعمر مدينة من مدن البشر أو يستبحر عمرانها إلا لأنها كانت مبنية على نهر متدفق ، أو ينبوع مغدودق . ولا سيما مدن العرب الضاربين فى البوادى ، فإن المناهل والغدران غرضهم الأسمى الذى يطمحون إليه ، ويحرصون عليه ، ويكثر بينهم التحاسد والتنافس فيه . وكم من غارة شنت ، ونارحرب شبت — من أجل غدير، أو اغتصاب بئر .

وقالوا : قد جُننتَ ، فقلت كلا ... وربّى ما جننتُ ولا انتشيت
ولكنى ظلمت فكدت أبكى ... من الظلم المبيّن أو بكيت
فإن الماء ماء أبى وجدّى ... وبئرى ذو حفرت وذو طويت

وإذا أرادوا الدعاء لأحد بالحياة ، ولين العيش ، وسبوغ النعمة — قالوا : "سقيا له"، و"سقاه الله" ، كما يقولون : "طوبى له" ، و"حيّاه الله" :

فمعنى قوله : ﴿ لأسقيناهم ماء غدقا ﴾ لوسعنا عليهم الرزق ، وأجزلنا لهم النعم ، وبسطنا لهم الدنيا ، يتقلبون من رغدها وغضارة عيشها فيما شاءوا وأحبوا .

فتوفر أسباب الحياة الطيبة ، ورغد العيش فى الأمم — إنما هو أثر من آثار تقوى الله ، والعمل بطاعته ، وسلوك طريقته التى يرضاها ، كما قال هؤلاء النفر خطباء الجنّ لقومهم . غير أن الماء الغدَق ، وسعة الرزق ، وبسطة الحياة الدنيا — كما تكون ثوابا من الله للأمم على استقامتها ، وحسن طاعتها واستمساكها بحبال سننه تعالى فى خلقه — تكون فى الوقت نفسه فتنة تصبح الأمم فيها عرضة للخطر ، ومزلقا تهوى منه إلى حضيض الشقاء ، والتعاسة والفناء.

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ج

وذلك يكون بعدول تلك الأمم عن الطريقة التى استقاموا عليها ، والتى كانت سببا لسعادتهم ، واعتلاء شأنهم .

فالله يرشد الأمم والشعوب إلى طريقة مُثْلَى من دينه وحسن طاعته ومراعاة سننه ؛ فإذا استقاموا أفلحوا وسعدوا ، لكنهم — وهم فى هذا الفلاح والسعادة — بسبيل الغفلة والذهول والزهو والغرور والتنكب عن الطريقة المثلى : طريقة الدين والحق والعدل وحسن العمل .

فما أحراهم ساعتئذ باليقظة والانتباه والتدبر! ما أحراهم بفرط الحذر والاحتياط والاستمساك بحبل النجاة ! ما أحراهم أن يكونوا فى هذه التجربة والمزلق الدحض ذوى أقدام ثابتة ، وحلوم راجحة ، وعزائم متينة ؛ كى يجتازوا الصراط ، ويتخطوا المزلق ، وينجوا بأنفسهم . اقرأ كتاب الله ، وتصفح التاريخ ، واستعرض أحوال البشر ، وطبق هذا الناموس الإلهى عليهم — تجده مطردا لا خلف فيه ، محكما لا وهن يعتريه .

إن هذا الدور دور الفتنة والتجربة بالتبسط فى أفانين النعيم ولذائذ الحياة الدنيا — من أرهب الأدوار على الأمم ، وأشدّها خطرا على حياتها ، وإلى هذا الدور أشار تعالى مذ قال : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) ، وقال : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون).

وكل ما ذكر الله فى الكتاب من أخبار الأمم الماضية إنما ذكره تقريرا لهذا القانون الإلهى ، وكشفا عن أمره ، وتحذيرا من غوائله ، بل تنزل الوحى إلى ذكر ذلك لنا على لسان إخواننا من الجن — كما فى هذه الآية — ليكون أدعى إلى الانتباه والاتعاظ والاعتبار .

ومحصل معنى الآية أن أولئك النفر من الجن قالوا لقومهم : إن الذين يستقيمون على طريق الحق يصلون إلى بحابح السعادة وطيب الحياة ، ولكن ليحذروا وقد بلغوا هذا الدور أن يبطروا ويشغلوا بزهرة الحياة الدنيا ولذائذها عن العمل بالحق والعدل وطاعة الله ؛ فإن سعادة الحياة فتنة واختبار ، كما أن شقاءها ومصائبها كذلك ، فكونوا أيها القوم من تلك الفتنة على حذر ، وهذا هو معنى قوله تعالى (لنفتنهم فيه) ولام (لنفتنهم) هى ما يسميه النحاة لام العاقبة ، وليست هى لام التعليل ، أى ليس المعنى أن الله يوسع عليهم الرزق ويغدق النعم لأجل أن يفتنهم وإنما المعنى أنه يفعل ذلك بهم جزاء طاعته ، واتباع طريقته ، ثم تكون عاقبة ذلك انتقالهم إلى دور خطر ،

وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

وموقف حذر، فيه يفتنون ويجربون ؛ فإن أحسنوا وصدقوا ما عاهدوا الله عليه نجوا وسلموا ، وإن خاسوا بالعهد ، واستخفوا بالوعيد والوعد — بادوا وقُصموا .

وقد فهم من هذا الشرح معنى قوله تعالى : ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه ﴾ ، أى من يعرض من أولئك الذين أسقيناهم ماء غدقا — أثناء اجتيازهم دور الفتنة والاختبار — عن وحى ربه ودينه والعمل بطاعته ﴿ يسلكه ﴾ يدخله ﴿ عذابا صعداً ﴾ أى فى عذاب صعدٍ ، وفعل [سلك] يتعدى بفى قال تعالى : (ما سلككم فى سقر) أى ما أدخلكم فيها ، لكنه هنا عدى إلى مفعوله بنفسه حملا له على فعل "دخل"، يقال : "دخلت السوق" و "أدخلته الخان" من دون "فى" .

و (الصَّعَد) بفتحتين وبضمتين بمعنى الصعود : مصدر صَعِد يصعَد ، والصعود أكثر استعمالا منهما ، و "العذاب الصعد" هو العذاب الشديد الشاق ، وأَصله من التصعيد فى الجبل ؛ فإنه مُنْصِب مُتْعِب ، فجعل العرب التصعيد فيــه مثلا للشقة والنصب الذى يلحق المرء من أى شيء كان ، وتقول "تصعدنى الشيء" و "تصاعدنى" إذاشق عليك ، ومنه قول عمر رضى الله عنه : "ما تَصَعَّدنى شيء ما تصعدتنى خطبة النكاح" يريد ما شق علي ولا غلبنى إلا هى ، أو هى من الصعود بفتح الصاد العقبة الشاقة كما قالوا "تكاءدنى وتكأدنى" من العقبة الكئود أى شق على ومثــله قوله تعالى : (سأرهقه صَعودا) ، معناه سأسومه عذابا يشق به كما يشــق المصعد فى الصعود .

والعذاب الذى يعترى الأمم بسبب إعراضها عن أمر ربها ، وعن مراعاة سننه ، والعمل بطاعته — من أشدّ أنواع العذاب ، وأكثرها حزا فى القلوب ، وإرماضا للنفوس .

وقد فسرنا "ذكر الرب" بالطاعة والدين واتباع السنن الإلهية ؛ لأن سعادة الأمم وشقاءها ، وسقوطها وارتقاءها — إنما يكون بهذا النوع من الذكر ، أعنى العملى ، أما الذكر اللسانى الذى تتعلل به الأمم حين غلبة الجهل والكسل والخمول عليهــا فإنه لا قيمة له من دون عمل ، ولا يدفع عنها الخطب إذا الخطب نزل . وقلمــا نجد فى كلام الله كلمة "الذكر" إلا مرادا بهــا القرآن والوحى والدين وطاعة الله والخشية منه . أما الحركة العضلية أو الميكانيكية فما أبعدها عن مقاصد القرآن ! ! وما أضعفها أثرا فى نجاة الإنسان ! !

وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ

ومما قاله أولئك الخطباء لقومهم مباهين بما سمعوه واستفادوه من الوحى الإلهى ﴿أن المساجد لله﴾ ، و (المساجد) جمع مسجد . والمراد به مكان السجود ، أو المراد به السجود نفسه ؛ فيكون مصدرا ميميا سميت به الصلاة تسمية للكل باسم الجزء كما تسمى أيضا ركوعا لذلك . فالمعنى أن الصلوات كلها التى يصليها أى شخص، مسلما كان أو غير مسلم، أو أن المعابد كلها للمسلمين كانت أو لغيرهم من أبناء الملل الأخرى — هى لله ، أى ينبغى أن تكون خالصة له فهو الخالق الحقيقى للبشر ، ولا يحسن منهم أن يجعلوا صلواتهم أو معابدهم لغيره أو باسم غيره ، بل يجب أن يخصوه وحده بها ، ويخلصوا له العبادة فيها .

هذا ما قاله الجن لقومهم ، ثم فرّعوا عليه نهيهم لهم عن عبادة غير الله ، فقالوا لهم : ﴿فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ ، أى إذا كانت المساجد له وحده فلا تعبدوا معه سبحانه أحدا من خلقه . فالمراد بالدعاء هنا وفى قوله بعده (يدعوه) العبادة . وقلما ذكر الدعاء فى الكتاب إلا أريد به هذا المعنى ، أى العبادة . بل قالوا إن الدعاء مخ العبادة . والدعاء فى الأصل الطلب ، ثم صار يطلق على العبادة ؛ لأن من شأن العابد أن يطلب من معبوده ما لا يقدر عليه غيره . ومن ثم نُهى المؤمن بالله أن يطلب من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله ؛ لئلا يكون فى طلبه هذا عابدا لذلك أو كالعابد له . قال تعالى : (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم) .

ولما أنهى أولئك النفر من الجن حديثهم أحبوا أن يختموه بذكر ما علموه من أحواله صلى الله عليه وسلم ، وقيامه بدعوة الناس إلى التوحيد ، وما كان من تكذيب الناس له ، وصبره على أذاهم ، فقالوا : ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه الخ﴾ ، وقد سموه صلى الله عليه وسلم باسم (عبد الله) تنبيها لقومهم إلى أنه مع ما هو عليه صلى الله عليه وسلم من رفعة القدر ، ونباهة الذكر ، واستجماع الكمالات فى ذاته الشريفة — ليس من شأنه أن يوسم بغير ميسم العبودة .

لا تدعُنى إلا بياعبدها فإنه أشرف أسمائى

فليس هو صلى الله عليه وسلم إلها أو متألّها فى الأرض ، ولم يقم ليكون جبارا من جبابرتها ، ولا طاغوتا من طواغيتها . وإنما هو كما قال عن نفسه " عبد ، أجلس كما يجلس العبد ، وآكل

كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾

كما يأكل العبد " . وقد حض أمته على ألا يطروه كما تطرى الأمم أبطالها وعظماءها وأنبياءها إلى درجة الألوهة ، ولكن ليقولوا عنه : إنه عبد الله ورسوله .

فالجن يقولون لقومهم : (إنه لما قام عبد الله) محمد صلى الله عليه وسلم (يدعوه) يدعو ربه ، ويعبده وحده من دون الأصنام والأنداد التي تعبدها القبائل والأمم في ذلك العهد — هاج هؤلاء الأقوام ، وتألبوا عليه من كل جانب بحيث ﴿ كادوا يكونون ﴾ من فرط كثرتهم وتجمعهم وتعاونهم وازدحامهم ﴿عليه﴾ لصدّه عن دعوته ، وإسكاته عن تبليغ رسالة ربه — ﴿ لِبَداً ﴾ كاللبد أى كخيوط الشعر أو الصوف التي تلبدت ولُزّ بعضها إلى بعض . و[اللِّبَد] بكسر ففتح جمع لبدة بكسر اللام ويجوز ضمها فتجمع إذ ذاك على لبد كغرفة وغرف . وهى اسم لكل شعر أو صوف متلبد . وسمى الشعر المتلبد على أكتاد الأسد لبدا لذلك ، ويلقب الأسد به فيقال " ذو لبدة " وفى المثل " هو أمنع من لبدة الأسد " .

ثم قال الخطباء : وإن عبد الله محمدا صلى الله عليه وسلم لما تألبت عليه القبائل تناصبه وتحاربه لم يقل لهم قول المخبولين الموسوسين، ولا الجبارين المتكبرين بل ﴿قال﴾ لهم قول البررة المخلصين : إنى ياقوم لم آت أمرا منكرا ، ولم أفعل ما أستوجب به منكم كل هذا الإعراض والنفور والإصفاق على عداوتى ومقاومتى ﴿إنما أدعو﴾ وأعبد ﴿ربى﴾ الذى خلقنى وأمدنى من ضروب العناية والتربية والتأديب بما صرت به بشرا سويا ، وعبدا بطاعة ربه مليا ، فأنا لا أكفر بكل هذه النعم ، ﴿ولا أشرك بربى ﴾ وعبادته والإخلاص إليه ﴿ أحدا ﴾ من خلقه : الذين إنما قاموا به ، واستمدوا كيانهم منه[1] .

ما مر كان آخر حديث أولئك النفر من الجن مع قومهم ، ثم انتقل الوحى منه إلى الحديث معه صلى الله عليه وسلم معلما له ، ومرشدا إلى أفضل الطرق وأمثلها فى خطاب قومه من قريش ، ومحاجتهم فى الله ، وتخويفهم عقابه ، جاعلا محاجة الجن لقومهم توطئة وتمهيدا ، بل نموذجا ومثالا ، فقال :

(١) اقتصر المؤلف هنا على قراءة «قال» ، وفى تفسير الآلوسى : (وقرأ الأكثرون قال على أنه حكاية منه تعالى لقوله صلى الله عليه وسلم للتراكمين عليه ، أو حكاية من الجن عند رجوعهم إلى قومهم ...... وقراءة الأمر وهى قراءة عاصم وحمزة وأبى عمرو — بخلاف عنه — أظهر وأوفق لقوله سبحانه «قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ») .

قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ
وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾

﴿ قل ﴾ يا محمد فى مجاجة هذه القبائل التى ازدحمت عليك للبطش بك ازدحام شعر اللبود : ﴿إنى لا أملك لكم ضرا﴾ أى ولا نفعا — كما لا أملك لكم غيا ﴿ولا رشدا﴾ : فحذف " نفعا " من الأول لدلالة " ضرا " عليه ، وحذف " غيا " من الثانى لدلالة " رشدا " عليه ، فهو من جوامع الكلم الذى كثر ورود أمثاله فى الكلام المعجز .

يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينبه قومه ومقاومى دعوته إلى أنه لم يقم فيهم لتكون له سيطرة عليهم ، ولا ليبدل ويغير ما قدره الله وقضاه فيهم من خير وشر ، ونفع وضر ، وغى ورشاد ، وإشقاء وإسعاد — كلا ! فإن ذلك كله ليس من مقدوره ، وإنما هو بيد ربهم ، وإليه مرجعه . وأنه هو صلى الله عليه وسلم لم يزد عن كونه واحدا منهم : أرسله الله ليبلغهم وحيه وأمره ، ويدلهم على الطريق التى يريد ربهم أن يستقيموا عليها ، فبقدر ما يكون منهم من الهدى فى تلك الطريق وعدم الانحراف عنها يكون لهم من الضر والنفع ، والغى والرشد ، ثم يكون حسابهم على الله. بل ﴿قل﴾ لهم يا محمد فوق ذلك : ﴿إنى﴾ أنا المرسل بتبليغ أمر الله إليكم ﴿لن يجيرنى﴾ إن خالفت ، وأهملت ، أو أذنبت ، ﴿من الله﴾ إن أراد عقابى والتنكيل بى ﴿أحد﴾ من البشر ﴿ولن أجد من دونه ملتحدا ﴾ أى ولن ألقى إن هربت من عقاب الله وسطوته ملاذا ألتجئ اليه ، وآمن فيه من العقاب . سمى الملاذ والملجأ " ملتحدا " من " اللحد " وهو فى أصل معناه الميل : يقال لحد فلان إلى فلان إذا مال إليه ، ولحد السهم عن الهدف إذا عدل عنه ، ولحد فى دين الله إذا مال عن صراطه إلى مضايقه وثُنَيَّاته . ولما كان الملجأ والملاذ يلتحد إليه الهارب للاعتصام به سمى ملتحدا ، وقد نفى أولا أن يجد صلى الله عليه وسلم مجيرا وناصرا من جنس البشر ، ثم عاد فنفى أن يكون له ملجأ ومعقل يأوى إليه من الأجناس الأخر ، فإذا كان هو صلى الله عليه وسلم حبيب الله وصفيه من خلقه ، ومبلّغ وحيه وأمره إليهم — معرضا للقهر والانتقام الإلهى إن خالف أو عصى أو قصر فى هداية أولئك الأقوام المرسل إليهم — فكيف يكون حالهم هم إذا عصوا وظلموا وتصاموا عن استماع أمر ربهم ، والعمل بما يرضيه ؟ لاجرم أن الأمر الإلهى ، والشرع السماوى — ناموس عام ، بديع الصنع والإحكام ، مطبق بدقة على جميع الأنام ، فمن راعاه ، واستمسك بعراه ، سلم ونجا ، ومن استخف به ، وحاد عنه ، شقى فى الحياتين ثم هوى .

إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ
نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

نفى الوحى عنه صلى الله عليه وسلم فى الآيات السابقة كل طاقة وقدرة تحول بينه وبين إنفاذ المشيئة الإلهية فيـه ، كما نفى عنه أن يكون مالكا لشىء من مصير الخلق وأمر ضرهم ونفعهم ، وغيهم ورشادهم ، لكنه عاد فأثبت له صلى الله عليه وسلم حقا واحدا ، وعملا واحدا ، ووظيفة واحدة يملكها بإذن الله ، وهى مناولته أولئك القـوم المكذبين ﴿بلاغا﴾ جاءه ﴿من الله﴾ تعالى و"رسالات" وهى سور القرآن وآياته : أنزلت عليه من الله ليتلوها عليهم ، فمن سمع البلاغ ووعاه من المخاطبين ، وتقبل الرسالات وتدبرها ، وعمل بمضمونها — كانت له الجنـة خالدا فيها أبدا ، ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ ، فيعرض عن سماع البلاغ وتدبر الرسالات والانتفاع بها — ﴿فإن له نار جهنم﴾ جزاء وفاقا لتكذيبه وإعراضه وسوء صنيعه ، وقوله : ﴿خالدين فيهـا﴾ أى لابثين فى العذاب إلى غير نهاية ، وإنمـا جمع (خالدين) ميلا مع المعنى : وذلك أن (مَنْ) لفظها مفرد ، فأعاد عليها الضمير مفردا فقال : (فإن له) ، أما معناها فعام شامل لكل عاص ، فلذلك جمع خالدين تمايلا مع ذلك المعنى ، وفى الكلام — قبل قوله (ومن يعص الله الخ) — مقدرٌ أشرنا إليه بقولنا : "فمن سمع البلاغ ووعاه الخ" ، ثم عطفنا عليه قوله تعالى (ومن يعص الله الخ) ومثله كثير فى آيات القرآن ومختلف أساليبه ، ولو ذكر فيه كل ما حذف منه من هذا القبيل لبلغ حجمه أضعاف ما هو عليه ، فسبحان من أنزله ، وبحلية الإيجاز والإعجاز زينه وكمله .

والضمير فى قوله : (حتى إذا رأوا) يرجع إلى (من) باعتبار معناها الجمعى كما قلنا فى خالدين ، وكلمة (حتى) غاية لمضامين الآيات التى وصف فيها إعراض المكذبين وتألبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث أشبهوا فى تألبهم وتظاهرهم اللبد ، فالمعنى : سوف يستمر هؤلاء المعاندون فى غيهم وضـلالهم ، واستخفافهم برسول الله وصحـابته ، واستضعافهم لهم ، ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون﴾ أى حتى وقت معاينتهم ما أوعدهم الله به من العذاب والعقوبة : أما فى الدنيا فإن مصيرهم فيها الخزى والخذلان والهزيمة وظهور أمر المؤمنين ، وأما فى الآخرة فإن مآبهم فيها إلى النار وبئس القرار ، ﴿فسيعلمون﴾ عند رؤيتهم ذلك ، وتحققهم صحته ﴿من أضعف ناصرا﴾ معينا

قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾

وحاميا ﴿وأقل عددا﴾ نفرا وجندا : هم أو محمد عليه الصلاة والسلام . لا ريب أنه صلى الله عليه وسلم هو الأقوى ناصرا ، فإن ناصره الله تعالى ، وهو الأكثر عددا ، فإن جنده الملائكة الأطهار ، والمؤمنون الأبرار .

ويحتمل أن يكون المعنى أنهم سيعلمون يوم القيامة أن الله تعالى هو القوى العزيز القادر على التنكيل بهم ، والانتقام منهم ، فلا ينفعهم يومئذ أنصارهم وحلفاؤهم شيئا ، ولا يغنى عنهم عددهم وتكاثر حصاهم فتيلا .

كان صلى الله عليه وسلم كلما خوّف المكذبين نار جهنم ، وحذرهم أهوال الساعة — أظهروا الاستخفاف بقوله ، وسألوه : متى تقوم هذه الساعة ؟ وطلبوا منه أن يعين لهم زمنها ووقت حلولها ، ويتخذون من جهلهم وقتها ، وإخفاء الله لها ، سبيلا إلى تكذيبها وإنكارها بالجملة ، ولله فى إخفاء الوقت الذى تخرب فيه الكائنات وتقوم الساعة حكمة هو سبحانه أعلم بها ، وربما كان لذلك تعلق شديد بحياة البشر ، واستتباب أمرهم ، وانتظام مصالحهم . وقد كانوا يلحون عليه صلى الله عليه وسلم فى تعرّف أمر الساعة ، فكان أحيانا يشاركهم فى الاهتمام بها ، وترديد ذكرها ، حتى عاتبه ربه على ذلك فى سورة النازعات فقال : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها) يعنى أن أمرها غيب اقتضت الحكمة الإلهية ألا يطلع عليه أحد حتى أنت يا محمد ، فدع عنك كثرة اللهج بها .

وهكذا القرآن : كان كلما ذكر من أمر الساعة وتحقيق وقوعها أتبع ذلك ببيان أن زمنها مكتوم عن الخلق يجهله كل أحد إلا الله .

ولما ختم فى الآيات السابقة الحديث مع قبائل العرب المتألّبين عليه صلى الله عليه وسلم — بإيعادهم بنار جهنم والخلود فيها — كانوا بسبيل أن يسألوه حسب شنشنتهم : متى يكون هذا الذى تعدنا به ؟ قريب هو أم بعيد ؟ فقال الله لنبيه : ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿إن أدرى﴾ أى ما أدرى ﴿أقريب ما توعدون﴾ من قيام الساعة بحيث أصبح متوقع الحلول ، منتظر الحصول كل وقت وآن ﴿أم يجعل له ربى أمدا ؟﴾ يعنى أم هو غير منتظر الآن وغير متوقع الحصول ، لأن الله جعل له أمدا وأجلا هو بالغه ، فقوله (أمدا) واقع فى مقابل قوله (قريب) كما تقول : أقريبة زيارتك أم لها أجل فهى مؤخرة إليه ؟

عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

ثم وصف تعالى نفسه بقوله : ﴿عالم الغيب﴾ ، وفى سياق الآيات الماضية أمران اقتضيا وصفه تعالى بذلك .

(١) ما ورد على لسان أولئك النفر من الجنّ : أنهم لا يعلمون الغيب ، وأنّ الله قد حال بينهم و بين معرفة ما قدّره فى السماء بشأن الخلائق .

(٢) إخفاء الساعة عن متناول علم البشر ، وأنه لا معنى لاهتمامهم بها وتساؤلهم عنها من وقت لآخر ، فالغيب بوجه عام — وغيب يوم القيامة بوجه خاص — مما استأثر الله بعلمه .

﴿فلا يظهر﴾[1] أى لا يطلع ﴿على غيبه أحدا﴾ من خلقه .

و (أل) فى (الغيب) للاستغراق ، أى أنه تعالى عالم كل الغيوب على اختلاف أنواعها وأشكالها والغيب ما غاب عنا معشر البشر مما لا نهتدى إليه بشىء من حواسنا ومشاعرنا ، أو بشىء من فراستنا وقياسنا واستنتاج عقولنا ، وكل ما أمكننا علمه والوصول إليه بإحدى هذه الوسائل لا يكون غيبا ، بل لا يسمى غيبا بالمعنى الذى يشمله قوله تعالى (عالم الغيب) .

والغيوب التى استأثر الله بعلمها أنواع ، لكن منها ما للبشر فيه حاجة ، ولهم بالاطلاع عليه رفق ورحمة وفائدة كالوحى والشرائع والأوامر والنواهى الإلهية المغيبة عنهم ، والتى لا يبلغها علمهم ، ولن تهتدى إليها عقولهم ، فهذه الشرائع السماوية إذا بقيت مكتومة عنهم ، غير مبلغة إليهم — أضر ذلك بهم ، وأخل بنظام أمرهم ، وضيع عليهم السعادتين الدنيوية والأخروية .

وقد قام فى البشر حكماء وفلاسفة وكهان ادعوا علم هذا النوع من الغيب المتعلق بمصالح البشر وانتظام أمرهم ، وكانوا يزعمون أنهم وصلوا إلى شىء منه بعقولهم أو رياضاتهم ، أو بواسطة الجنّ ، فنفى الله ذلك أولا عن الجن بلسان الجنّ أنفسهم ، ونفيه عنهم مستلزم لنفى

---

(١) ورد فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم سمع جوارى يغنين فى عرس و يقلن :

وأهدى لنا أكبشا تجبح فى المربد
وزوجك فى النادى ويعلم ما فى غد

فقال صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب إلا الله ، ومعنى تجبح تمكن وتجلس مستريحة ، والمربد الحظيرة . المؤلف .

قوله فى «النادى» هو كذلك فى الأصل وفى لسان العرب ، ولعله «فى المنتدى» ليستقيم وزن البيت . المصحح .

﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾

معرفته عن الكهان بالضرورة ، ثم نفى فى هذه الآية إمكان اطلاع أحد من البشر مهما ارتق عقله ، وصح حكمه ، وصفا قلبه ، وأشرقت نفسه — على ما فى غيب الله من الوحى والشرع الذى يتوقف عليه خير البشر وصلاحهم ﴿إلا من ارتضى من رسول﴾ — فانه تعالى قد يرتضى ويصطفى رسلا من خلقه يطلعهم بواسطة جبريل عليه السلام على ذلك الغيب السماوى ، فيبلغهم إياه وحيا : توراة أو زبورا أو إنجيلا أو قرآنا ، متضمنا ما يريد أن يخاطبهم به مما فيه صلاحهم وسعادتهم ، وانتظام أمر معاشهم ومعادهم .

وهذا هو المراد من الغيب الذى قال الله عنه إنه يطلع عليه رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام نقل ذلك ابن جرير الطبرى فى تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وذهب إليه أيضا ابن جريج ، وزِرُّ بن حبيش ، وابن واقد ، وابن زيد ، وقالوا : إن الغيب هنا بمعنى الوحى والشرائع كالغيب فى قوله تعالى : (وما هو على الغيب بضنين) ، أى ما محمد صلى الله عليه وسلم على الوحى والشرع الذى يلقى إليه بمتهم فيغير أو يبدّل فيه .

ومما يشهد على أن المراد بالغيب ما ذكر — قوله تعالى بعده : ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ .

[سلك وأسلك] بمعنى أدخل وأرسل وبثَّ ، و[الرصد] مر أنه بمعنى الحرس والحفظة ، وضمير (يديه) يرجع إلى (من) فى قوله (من ارتضى من رسول) باعتبار لفظها المفرد ، لكن لما كان معناها جمعا وهو كل رسول يرتضيه سبحانه ويصطفيه لنبوّته أعاد عليها الضمير فى (أبلغوا رسالات ربهم) جمعا ، وقد مر نظيره فى قوله : (فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا) .

ومعنى ﴿ليعلم﴾ لأجل أن يقع تبليغ الرسالات وينكشف أمره للخلق ، فيتعلق علم الله به واقعا وقد سمى ذلك الوقوع علما كما سماه كذلك فى آية (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) وإلا فإن إطلاع الله رسله على وحيه ، ثم حفظه لهم من نسيان شيء منه — ليس لأجل أن يعلم الله هو ذاته ذلك ، كيف وهو يعلمه منذ الأزل وقد قدّره وقضاه ، وإنما يرسل الله الرسل ويعصمهم من النسيان لأجل أن يعقب ذلك إنجاز القدر الإلهى ، وتعلق العلم القديم ، وتكون

وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

نتيجته تبليغ هؤلاء الرسل رسالات ربهم ووحيه إلى خلقه ، فاللام فى قوله (ليعلم) يشبه أن تكون ما يسميه النحاة لام العاقبة ويمثلون لها بقوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّا وحزنا) وكما مر فى لام (لنفتنهم فيه) .

فمعنى الآية إذن أنه تعالى عالم الغيب كله لا يطلع عليه أحدا من خلقه ، إنسيا كان أو جنيا ، حكيما أو كاهنا ، اللهم الا غيبه الذى فى إطلاع الخلق عليه رحمة بهم واستصلاح لهم ، وهو شرعه السماوى ، وخطابه الأزلى الإلهى ، فإنه يوحيه بواسطة أمين وحيه جبريل إلى (من ارتضى من رسول) ، أى إلى أى رسول من خلقه ارتضاه واختاره واصطفاه لذلك ، فيأمره بتبليغه إليهم ، وإنه تعالى (يسلك) أى يرسل ويبعث ويبث من بين يدى رسله ومن خلفهم (رصدا) على معنى أنه تعالى يحوط رسله من كل جانب برصد من الحراس والحفظة ، وذلك صونا لهم ، وحفظا من الوساوس والتخاليط ، أو من الذهول والنسيان ؛ حتى لايتركوا بعض ما أوحى إليهم ، أو يذهلوا عنه ، أو يقصروا فى تبليغه . وهـذا كناية عن أنه تعالى ركز فى فطرة أنبيائه مقدرة أو صفة بها يطيقون تبليغ رسالاته إلى خلقه من دون تفريط فى شيء منها ، كما تقرر فى "علم العقائد" ، ويسمون تلك الصفة " العصمة أو الأمانه " .

ثم إن إنزال الوحى ورسالات الكتب السماوية على الأنبياء وعصمتهم من التفريط فيها تكون نتيجته إبلاغهم تلك الرسالات إلى البشر ، وبذلك تحقق المعلومات الإلهيـة ، وتتم المشيئة الأزلية فى إسعادهم وهدايتهم ، واستصلاح أمر دنياهم وآخرتهم . فالمراد من قوله (ليعلم) ليَظْهر وينكشف ويتحقق كما قلنا آنفا .وقد زاد هذا المعنى وضوحا بقوله بعده ﴿وأحاط بمالديهم﴾ أى أنه تعالى أحاط علمه بجميع ما لدى الأنبياء من الوحى والشرائع والرسالات ، فلن يفوته منها شيء ؛ ولا يتفلت حرف ؛ فهو مُحْصٍ لها ، مهيمنٌ عليها . وهو تعالى لم يُحط علمُه القديمُ بما لدى رسله فقط بل إنه ﴿أحصى﴾ ، وعَلِم عِلْم ضبط واستقصاء وشمول — ﴿كل شيء﴾ من هذه المخلوقات. المنبثة فى الأرضين والسموات ﴿عددا﴾ أى حالة كون كل واحد من تلك الأشياء معدودا مميزا عن غيره . هذا هو مبلغ علمه سبحانه بتفاصيل الأشياء الكونية وجزئياتها ، فكيف لا يحيط علما بما عند رسله من وحيه ورسالاته التى أمرهم بتبليغها إلى خلقه ؟ وكيف يمكن لرسله عليهم الصلاة والسلام أن يفرطوا فى تلك الرسالات ، أو يزيدوا أو ينقصوا ، أو يحرفوا فيها أو يغيروا ، وهو تعالى محيط بها محص لها ؟